

تمهيد
الأندلس والأندلسيون

١ - اسم الأندلس :

لم تُعرف شبه الجزيرة التي تشمل حالياً دولتي إسبانيا والبرتغال باسم الأندلس ، قبل أن تعرف المسلمين ، وإنما عرفت في أقدم عصورها باسم إيبيريا Iberia نسبة إلى الإيبيريين Los Iberos الذين كانوا من أقدم من سكن هذه البلاد من البشر .

ثم عرفت شبه الجزيرة بعد ذلك باسم إسبانيا ، وهذا الاسم Hispania قد أطلقه الرومان على شبه الجزيرة حين حكموها ، وقد استنبطوه من تعبير فينيقي ، كان الفينيقيون قد أطلقوه من قبل على الشاطئ الذي نزلوا به من تلك البلاد ، حين اتصلوا ببعض جهاتها قبل الرومان ؛ وهذا التعبير الفينيقي i-schephan-im يعني « شاطئ الأرانب » . ويقال في تحليل ذلك : إن الفينيقيين قد صادفوا كثيراً من الأرانب على الشاطئ الإيبيري الذي نزلوا به^(١).

كذلك كان الجزء الجنوبي من إسبانيا يسمى باسم « بتيكا » Betica وكان ذلك في العهد الروماني ، ثم سمي باسم « قنطليسيا » Vandalisia حين سكنه الوندال بعد الرومان على ما سنوضح فيما بعد .

فلما جاء المسلمون بعد ذلك أطلقوا على شبه الجزيرة جميعاً اسم الأندلس ، وظل مؤرخوهم وجغرافيوهم وصائر علمائهم وأدبائهم يستعملون هذه التسمية ويفضلونها حين يربطون شبه الجزيرة الإيبيرية .

وأرجح الآراء أن هذا الاسم قد أخذه المسلمون من « وندلس »^(٢) Vandalos ، وهو اسم لبعض القبائل الأوربية الشمالية ، التي أغارت في أوائل القرن الخامس الميلادي

Aguado Bleye : Historia de Espana, p. 53.

(١)

Levi Provençal : Espaná musulmana, p. 44.

(٢)

على ممتلكات الرومان ، وكان هؤلاء « وندلس » — أو كما تعود كثير من الباحثين تسميتهم بالوندال — قد وصلوا إلى جنوب إسبانيا وسموه باسم « فندليسيا »^(١) نسبة إليهم . فلما جاء المسلمون فيما بعد وعرفوا ما كان من أمر « وندلس » بتلك البلاد سموها « بلاد الأندلس » ، وكانهم أضافوا تلك البلاد إلى هؤلاء الذين حكموها من قبل واشتهر أمرهم بها . وكل الذى فعله المسلمون من تغيير فى اسم « وندلس » هو هز الصوت الأول ، ومن هنا أصبحت الكلمة أندلس ، بدلا من وندلس .

ويمكن أن يقال : إن الكلمة مرت بمراحل صوتية ثلاث . الأولى « فندلس » كما تدل صورة الكلمة فى حروفها اللاتينية ، وكما يدل كذلك النطق الإشباني للكلمة Vandalos . والمرحلة الثانية « وندلس » كما يدل عليها نطق الكثيرين للكلمة بالواو بدلا من « الفاء » المجهورة التى يرمز إليها عادة بالحرف « V » . وهذا ليس بغريب فى التطور الصوتى ، فكثير من الكلمات قد حدث له هذا التطور ، وبناء عليه أصبح ينطق الحرف المجهور « V » وأو لا فاء مجهورة كما يدل رسمه .

والتطور الأخير ، هو الذى أحدثه المسلمون حين قالوا : « أندلس » لا « فندلس » ولا « وندلس » وهو تطور مألوف أيضاً . فالهمزة تأتى أحيانا بدلا من الواو فى العربية ، مثل : وُجُوهُ وأُجُوهُ ، جمع وجه .

وقد بقى اسم « الأندلس » الذى أطلقه المسلمون على شبه الجزيرة ، ولم يخرج بخروجهم ، ولكنه قد أصاب شيئا من التطور فى لفظه ، وشيئا من التطور كذلك فى معناه . أما اللفظ فقد أصبح فى اللغة الإسبانية « أندَلُثيا Andalusia » بدلا من أندلس . وأما المعنى فقد صار جنوب شبه الجزيرة فقط ، بعد أن كان شبه الجزيرة جميعاً .

والأقاليم التى يشملها اسم « أندلثيا » الآن فى إسبانيا هى المريّة ، وغرَناطة ،

(١) إز « وندليسيا » .

ومالقة ، وجيَّان ، وقرطبة ، وإشبيلية ، وقادس ، وأونبة .^(١)

ولعل من المكمل لهذا الحديث أن نذكر أن بعض المؤرخين القدامى قد أوردوا تعليقات أخرى لتسمية شبه الجزيرة الإيبيرية باسم الأندلس . فمن ذلك ما نقله المقرئ عن ابن سعيد من أن تلك البلاد «سميت بالأندلس ابن طوبال بن يافث ابن نوح لأنه نزلها»^(٢).

وليس يخفى ما في رأى ابن سعيد من تعليل أسطوري أبعد ما يكون عن الحقيقة . ومن المؤرخين العرب القدامى الذين اهتموا إلى التعليل العلمى الصحيح ، أحمد بن محمد الرازى الذى نقل عنه المقرئ قوله « وأول من سكن بالأندلس على قديم الأيام . . . قوم يعرفون بالأندلس معجمة الشين ، بهم سمي المكان ، فغرب فيما بعد بالسين غير المعجمة »^(٣) . فهذا تعليل يطابق أحدث التعليقات العلمية المبينة على أسس تاريخية ، وإن كان الرجل قد حسب أن هؤلاء الناس كانوا أول من سكن البلاد .

أما قوله : إن أصلها بالشين فسيبه — في رأى — أن السين أو الحرف s ينطق كثيراً في اللسان الإسباني بين السين والشين ، لكن العرب ينطقونها سيناً خالصة . فكان الإسبان كانوا ينطقون الكلمة ذات سين مشربة بالشين ، فلما جاء المسلمون نطقوا سينها واضحة لا أثر للشين فيها .

(١) هذه الأقاليم تسمى بالإسبانية على هذا النحو :

Almeria, Granada, Malaga, Jaen, Cordoba, Sevilla, Cadiz, Huelva.

ويلاحظ أن الحرف J الذى في أول الكلمة Jaen ينطق خاء ، وهو كذلك دائماً في اللغة الإسبانية . ويلاحظ أن الحرف Z الذى في آخر الكلمة Cadiz ينطق ثاء وهو كذلك دائماً في الإسبانية . كذلك يلاحظ أن الحرفين LL في آخر الكلمة Sevilla ينطق أولهما لا ما ، والثاني ياء .

(٢) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ٦٣ .

(٣) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ٦٦ .

وشبهه بالتعليل الأسطوري الذي ذكره ابن سعيد لإطلاق كلمة الأندلس على شبه الجزيرة ، ما ذكره بعض المؤرخين القدامى في سبب إطلاق كلمة إسبانيا على تلك البلاد ، فقد ذكر أنها سميت بهذا الاسم لأن عجم رومة قد ملكوها ، وكان « ملكهم إشبان بن طيطش ، وباسمه سميت الأندلس إشبانية »^(١) . فالصحيح أن الكلمة قد أطلقها الرومان على تلك البلاد ، ولكن لا أخذاً من اسم ملكهم إشبان الذي لا يعرف التاريخ عنه شيئاً ، بل أخذاً من عبارة فينيقية معروفة كان الفينيقيون قد أطلقوها على الشاطئ لإيبري حين نزلوا به .

٢ - لوحة جغرافية :

بلاد الأندلس شبه جزيرة تقع في الجنوب الغربي من أوروبا . والمياه تطوف بها من كل جوانبها ، عدا جانباً واحداً هو الشمال الشرقي ؛ حيث تحدها جبال البرانس^(٢) الفاصلة بينها وبين فرنسا . أما تلك الأمواه التي توشك أن تطوق الأندلس ، فهي مياه البحر الأبيض من الشرق ، ومياه المحيط الأطلسي من الغرب والشمال الغرب . ثم مزيج من مياه البحر والمحيط في الجنوب حيث مضيق جبل طارق^(٣) ملتقى البحر بالمحيط ، والفاصل الضيق بين شمال إفريقيا وجنوب إسبانيا ، فهذا المضيق يبلغ عرضه في أضيق مواضعه خمسة عشر كيلو متراً تقريباً ، ولولاها للاصقت إفريقيا من الشمال أوروبا من الجنوب .

(١) المقرئ : فتح الطيب ج ١ ص ٦٧ .

(٢) يسميها العرب أيضاً : البرقات . وهو من غير شك جمع عربي للكلمة الإسبانية Puerto بمعنى منفذ أو مدخل ، وذلك لأن تلك الجبال ذات ممرات تصل بين فرنسا وشبه الجزيرة .

(٣) هذا الاسم أطلق على المضيق بعد أن عبره طارق بن زياد من المغرب إلى الأندلس ، واسمه العربي قبل ذلك بحر الزقاق وكثيراً ما يستعمل حتى بعد الفتح ، ولكن الأوروبيين لا يزالون يستعملون اسم جبل طارق لهذا المضيق ، فيقولون إسبانيا مثلاً Gibraltar .



ويؤلف سطح شبه الجزيرة عناصر أهمها : الهضبة الكبرى التي تسمى « مسيتا » Meseta وهي تشغل جزءاً هائلاً من مساحة شبه الجزيرة . وتأتي بعد تلك الهضبة سلاسل جبال توشك أن تطوقها ؛ فن الجنوب تمتد جبال « سيرا مورينا Sierra morena » أي سلسلة الجبال السمراء^(١) . وتفصل تلك الجبال بين الهضبة وسهل جنوبي كبير ينسبط حتى أقصى الجنوب^(٢) . وفي شرق الهضبة تمتد كذلك سلسلة جبال أخرى . وهي الجبال الإيبيرية Sistema ibereco ، وهي التي تفصل بين الهضبة وسهل آخر هو السهل الشرقي ، الذي ينسبط حتى ساحل البحر الأبيض . . وفي شمال الهضبة تعلو جبال أخرى ،

(١) والعرب يسمونها : الشارات ، وهو جمع عربي محرف لكلمة Sierra الإسبانية بمعنى سلسلة جبال .

(٢) ترتفع من السهل الجنوبي جبال أخرى تسمى Sierra nevada أي سلسلة الجبال الثلجية ويسمها العرب « شلير الثلج » ولعل كلمة « شلير » تحريف عربي للكلمة الإسبانية Salir بمعنى الخروج ، فكأنهم يرون (بشلير الثلج) غمر جبال الثلج .

الجبال «القنطيرية Cantabrica» ، وهذه الجبال تليها شمالاً بعض الأقاليم السهلية الضيقة .
وفي الغرب تنحدر الهضبة حتى تنتهي إلى سهل ممر كبير هو السهل الغربي .

وتجري في الأندلس أنهار عديدة ، أهمها نهر الوادي الكبير ، الذي يسميه الإسبان حتى اليوم بهذا الاسم الذي أطلقه العرب ، ولكن مع تحريف يسير فيقولون : «جواد الكبير Guadalquivir»^(١) . وهذا النهر يروي أكثر أراضي السهل الجنوبي ، ويمر بالمدينتين الأندلسيتين العظيمتين قرطبة وإشبيلية ثم يصب غرباً في المحيط الأطلسي .
ثم يلي الوادي الكبير شمالاً نهر وادي يانث ، ويسميه الإسبان كذلك باسمه العربي ، فيقولون «جوادايانا Guadaiana» . ويعد هذا النهر يأتي شمالاً نهر التاجه ، ويسميه الإسبان «التاخه El Tajo»^(٢) ، وهو يمر بوسط الهضبة ، وتقع عليه مدينة طُلَيْطِلَة العظيمة^(٣) ..
وبعد كل هذه الأنهار يأتي شمالاً نهر دويره ، الذي يسمي عند العرب أحياناً بالوادي الحرق ، والذي يطلق عليه الأسبان اسم «دور Duero» وهو كسابقيه ينحدر إلى الغرب ويصب في المحيط الأطلسي .

على أن هناك أنهاراً أخرى تسير عكس تلك الأنهار ، حيث تصب شرقاً في البحر الأبيض ، وهي تلك الأنهار التي تروى الشرق والشمال الشرق تقريباً . وأهم تلك الأنهار : نهر إبره Ebro ، الذي يروي إقليماً عظيماً من أقاليم الأندلس ، تبرز بين مدنه ، مدينة مَرَقُسطَة^(٤) .

(١) من خصائص النطق الإسباني صموية نطق الواو المجرى في أول الكلمة ، ومن هنا أضافوا حرف G قبلها لتيسير النطق .

(٢) من التطورات الصوتية في اللغة الإسبانية اختفاء صوت الجيم المعطشة التي يدل عليها في كثير من اللغات الأروية الحرف J ، فهم ينطقون كل ما أصله جيماً معطشة أو J أوروبية خاء . هذا وبعض المصادر العربية تكتب الاسم بفتح الجيم ولكن صورة الاسم في اللغة الإسبانية ترجح أن الجيم مضمومة .

(٣) يسميها الإسبان Toledo

(٤) ويقول لها الإسبان Zaragoza . مع ملاحظة أن حرف z ينطق كالثاء العربية لا كالزاي ، وهذا من الظواهر الصوتية التي تختلف فيها الإسبانية عن غيرها من اللغات الأوربية .

ومن الأنهار الشرقية كذلك الوادى الأبيض ، الذى تطور اسمه على السنة الإسبانية إلى «جوادا لايبار» Guadalavivar . وهذا النهر يروى جزءاً كبيراً من شرق الأندلس ويمر بشمالى مدينة بلنسية ، المدينة الأندلسية العظيمة (١) .

ومن الأنهار الشرقية التى تلى الوادى الأبيض جنوباً ، نهر شقُر ، ويسميه الإسبان بما يشبه هذا فيقولون : «خوكر» Jucar (٢) . وعلى هذا النهر تقع جزيرة شقر التى تتصل اتصالاً كبيراً بالأدب الأندلسى لجمال طبيعتها ، وكونها مصدر إلهام لعدد من الشعراء . وهناك بعد ذلك جنوبى هذه الأنهر يجرى نهر شقُورة ، الذى يقال له فى الإسبانية «سجورا» Sigura (٣) . وهو يخترق مدينة مُرسية (٤) ويروى قسماً كبيراً من إقليم شرق الأندلس .

وهناك بطبيعة الحال أنهر أصغر من تلك التى ذكرت فى هذا الحديث ، كما أن هناك عموداً وآباراً كثيرة . وعلى تلك الأنهار والنهيرات والعيون والآبار والأمطار تعتمد الحياة الزراعية فى الأندلس . غير أن الاعتماد أساساً على الأمطار فى منطقة الهضبة الوسطى .

وهكذا نرى أن شبه جزيرة الأندلس ، ليست كما يتصور كثيرون جنة ليس فيها

(١) يقال لها بالإسبانية : Valencia مع ملاحظة أن الحرف c ينطق ثاء لأن بعده الحرف i وهذا من خصائص الإسبانية .

(٢) نص ياقوت فى معجم البلدان على أن الاسم بفتح فسكون (ج ٣ ص ٣٠٧) ولكن النطق الإشباني الذى يضم أول الاسم ربما يرجح أنه كان بالنضم فى العربية . ويلاحظ أن الشين العربية قد تطورت أولاً إلى جيم معطشة فى النطق الإشباني القديم ثم صارت خاء مثل كل جيم معطشة أو J فى النطق الإشباني الحديث .

(٣) إذا لاحظنا أن نطق كثير من الإسبان للسین يأق مشرباً بالشين ، وأن لافرق صوتياً بين القاف والجيم غير المعطشة فى اللغة العامية عادة ، كما يقال فى قال : جال - إذا لاحظنا ذلك تبين أن النطق الإشباني هو النطق العربى لهذه الكلمة تقريباً .

(٤) يسميها الإسبان Murcia . مع ملاحظة نطق الحرف c ثاء .

إلا السهول المنبسطة والحقول الخصبة والحدائق الغناء ؛ فالحق أن هذا تصور شعري حمل عليه ما جاء في نتاج شعراء الطبيعة الأندلسيين . ممن عاشوا في السهول الأندلسية الممرعة ، ثم صوروا لنا طبيعة تلك الأقاليم فقط ، فظننا أن الأندلس كلها كما وصف هؤلاء الشعراء ، وأخذنا صورة للبلاد كلها مما صور به الشعراء بعض أقاليمها . فالواقع أن بلاد الأندلس سهول وهضاب وجبال وأودية ، فيها الخصب السعيد . وفيها الجذب الشقي ، فيها بقاع تستحم بمياه الأنهار ، وفيها أخرى تتعطش إلى غيث السماء .

ولكن الشيء الذي لاشك فيه ، هو أن أخصب بقاع شبه الجزيرة وأحسنها مناخاً . تلك الأقاليم التي فضل المسلمون الحياة فيها حتى لم يكن مقامهم غيرها إلا قليلاً أو لضرورة . وتلك الأقاليم هي : السهول الجنوبية والشرقية والغربية ، التي تغني بالخصوبة الوفيرة وتروى من الأنهار العديدة ، وتسعد بالمناخ المعتدل . أما الأقاليم التي تقع ضمن الهضبة الكبرى ، فهي أقل الأقاليم حظاً من كرم الطبيعة وحسن المناخ . ويكفي أن نعلم أن تلك الأقاليم تتألف أكثر ما تتألف من أرض قليلة الخصوبة ، وكثير منها غير صالح للزراعة ، والصالح فيها يروى غالباً بمياه الأمطار . التي تجود حيناً وتبخل أحياناً . ثم إن المناخ في تلك الأقاليم أقرب إلى القارية منه إلى الاعتدال ، فهو في الشتاء شديد البرد كثير العواصف متساقط الثلج ، وهو في الصيف شديد الحرارة متوهج الهاجرة .

ومن هنا نتبين أن شبه الجزيرة الأندلسية مختلفة الطبيعة من إقليم إلى آخر ؛ وذلك لسعة رقعة البلاد وامتدادها ، ولانصافها من الشمال بأوروبا ومن الجنوب بإفريقيا ، هذا بالإضافة إلى التفاوت الشاسع في تضاريسها ، من جبال إلى سهول ، ومن هضاب تعفرها الرمال إلى شواطئ تغسلها البحار . وقد جعل كل ذلك من شبه الجزيرة الأندلسية ، موطناً لثلاث المناخات ومختلف الأجواء ؛ فبينما تغلب طبيعة أوروبا في الشمال ، تغلب طبيعة إفريقيا في الجنوب ، وبينما يماثل الإنسان غيره من سكان أوروبا في جهة ، يشابه

مجاوريه من سكان شمال إفريقيا في جهة أخرى . وليس ذلك بغريب بعد أن عرفنا أنه لا فاصل بين الشماليين ومجاوريهم الفرنسيين إلا جبال البرانس ، وأنه لا حاجز بين الجنوبيين ومجاوريهم المغاربة إلا مضيق جبل طارق .

وكما تختلف الأجواء والطبائع في بلاد الأندلس ، تختلف كذلك الحاصلات حتى يمكن أن يقال : إن أكثر الحاصلات التي تعرف في مناطق العالم المختلفة تنجى في الأندلس ، لأن هناك من الأجواء ما يصلح لكل المزروعات تقريباً . على أن أكثر حاصلات البلاد ، هي تلك التي تجود في حوض البحر الأبيض المتوسط ؛ فهناك يكثر القمح والشعير والأرز والبقول ، وتجود الفاكهة وخاصة الموالح والكروم ؛ وهناك أيضاً يكثر الزيتون ، الذي عليه وعلى الموالح والأرز والكروم يعتمد الدخل القوي أعظم اعتماد .

وببلاد الأندلس بعد هذا غنية بالمناجم والمراعي والمرافئ البحرية ، وهي بهذا كله تمثل — كما يقول كثيرون — قطاعاً كاملاً من العالم بطبائعه المختلفة وأجوائه المتعددة وحاصلاته المتباينة .

٣ — إسبانيا قبل المسلمين :

يُعتبر الإيبيريون Los Iberos من أقدم من عُرِف من سكان إسبانيا ، وقد اختلط بهم قديماً من يسمون بالسلتيين Los Celtas ، فنشأ من هذا الاختلاط الشعب المسمى بالسلتى الإيبيرى Celtiberos ؛ وذلك الشعب هو أصل الشعب الإسباني^(١) الذي

(١) يضيف بعض الباحثين إلى هؤلاء عنصرًا ثالثاً يسمى Los Tartisios وكانت لهؤلاء حضارة قديمة في جنوب شبه الجزيرة . وكان مركز تلك الحضارة مدينة Tartisios قرب Jerez . ويقال إن الإيبيريين إفريقيين عبروا البحر إلى شبه الجزيرة . وأن السلتيين أورييون عبروا جبال البرانس إلى شبه الجزيرة . وأما الترتيسوس فيقال إنهم أفريقيون ويقال إنهم آسيويون .

راجع : Antonio Ballestros : Síntesis de Historia de España, pp. 10 ff.

وانظر أيضاً : Aguado Bleye, pp. 153 ff.

أسهمت في تكوينه عناصر أخرى على مر التاريخ .

فقد اهتمدى الفينيقيون إلى شبه الجزيرة الإيبيرية ، فنزلوا بها وتبادلوا التجارة مع أهلها ، وأغرتهم خيراتها بالإقامة في بعض أقاليمها ، وخاصة في الجنوب حيث أسسوا مدناً لايزال بعضها قائماً إلى اليوم ، مثل مدينة قادس Cadiz ، وكان ذلك في القرن الحادى عشر قبل الميلاد^(١) .

ثم وفد الإغريق على شبه الجزيرة ، حول القرن السابع قبل الميلاد ، وأقاموا كذلك في بعض جهاتها ، وخاصة الجهات الشرقية ؛ وأنشأوا أيضاً من المدن ما بقى بعضه حتى اليوم ، كمدينة برشلونه Barcelona^(٢) .

وفي القرن الخامس قبل الميلاد ، نزل القرطاجنيون شبه جزيرة إيبيريا ، وأسسوا بها مدناً جديدة ، مثل مدينة قرطاجنة Cartagena التي سموها باسم دولتهم في شمال إفريقيا . ثم بسط الرومان نفوذهم على شبه الجزيرة حول منتصف القرن الثاني قبل الميلاد^(٣) حين تغلبوا على دولة قرطاجنة وورثوا ملكها . ومنذ ذلك الحين أصبحت شبه الجزيرة الإيبيرية ولاية رومانية . وقد صيغ الحكم الرومانى تلك البلاد بصيغته التي ظلت أهم خصائصها حتى الفتح الإسلامى برغم أن الرومان لم يكونوا حكام إسبانيا حين دخلها المسلمون . وأهم آثار الحكم الرومانى التي ظلت حتى الفتح الإسلامى : اللغة الرومانية والدين المسيحى .

Aguado Bleve, p. 154.

(١)

(٢) المراد بالإغريق إغريق آسيا الصغرى المسون Foces نسبة إلى Focca راجع المصدر السابق ص ١١٥ وما بعدها . وراجع أيضاً :

Antonio Ballestros : Síntesis de Historia de Espana, pp. 15 — 16.

(٣) سنة ١٣٤ ق . م .

وفي أوائل القرن الخامس الميلادي^(١)، استقره الوندلس في جنوب شبه الجزيرة حين أغارت تلك القبائل الجرمانية على ممتلكات الدولة الرومانية ، وقد ظل هؤلاء Los Vandalos حيناً في جنوب شبه الجزيرة ، ثم أجلاهم عنها القوط^(٢) . وهؤلاء كسابقيهم ، بعض تلك القبائل الجرمانية الهمجية التي كانت تغير على ممتلكات الرومان في ذلك الحين . وقد سيطر القوط Los visigodos على شبه الجزيرة تقريباً ، وأسسوا ملكاً كبيراً عاصمته طليطلة Toledo ، وظل ملكهم حتى كان الفتح الإسلامى سنة ٧١١ م .

وكان هؤلاء القوط قد اعتنقوا المسيحية التي سبقهم إلى إسبانيا منذ العهد الرومانى . كذلك كانت اللغة السائدة في العهد القوطى هى اللغة الرومانية التي سبقت القوط إلى السيطرة على شبه الجزيرة ودخلتها بدخول الرومان .

وقد سار القوط أول الأمر سيرة حسنة في إسبانيا ، ثم ما لبثوا أن أساءوا الحكم ، فأساءوا إلى أنفسهم وإلى الإسبان جميعاً ؛ ذلك أنهم أدخلوا إلى المملكات وتركوا الشعب نهياً للآلام ، فاستأثر الأشراف ورجال الدين بالحرية والسعادة ، وآثروا العاملين بالعبودية والشقاء . وقد أدى كل ذلك إلى كراهية الشعب للحكام ورجال الدين ، وتربصهم بهؤلاء وهؤلاء .

وقد ضاعف الحالة سوءاً ، كثرة المنازعات التي كانت تحدث بين زعماء القوط على العرش ، فقد كانت تلك المنازعات بمثابة الوقود يُلْقَى على نار الثورة ، فتشب حيناً بعد حين ، وكانت هذه الخلافات بين الشعب وحكامه من جهة ، وبين الحكام أنفسهم من جهة أخرى ، تهب العرش القوطى هزاً عنيفاً ، بل كانت ترقصه على حافة بركان .

(١) سنة ٤٠٦ م .

(٢) يقال إن الوندلس رحلوا إلى أفريقيا سنة ٤٢٩ م .

مراجع : Aguado Bleye, p. 339 .

فهناك الفشل السياسى والضعف الحربى والتفكك الاجتماعى والظلم الطبقي ، وقد تجمعت تلك العوامل فى أواخر العهد القوطى كأنها قطع الليل المظلم ، الذى تتطلع فيه العيون متلهفة إلى فجر جديد^(١) .

٤ - المسلمون فى إسبانيا :

كانت جيوش المسلمين قد بسطت سلطانها على شمال إفريقيا ، واستقرت بتلك العدو التى لا يفصلها عن الأندلس إلا مضيق جبل طارق . وكان ذلك بعد ضحايا عديدين من الجنود والقواد المسلمين ، وبعد جهاد طويل قد استمر منذ عهد عمر رضى الله عنه ، إلى عهد الوليد بن عبد الملك . وكان قائده على المغرب موسى بن نصير ، صاحب فضل كبير فى تثبيت قدم الإسلام فى شمال إفريقيا ، ونشر رأيته حتى المحيط الأطلسى .

ولاشك أن ذلك القائد الظافر كان يتطلع فى شوق إلى تلك البلاد الواقعة على الضفة الأخرى من المضيق . ولكنه فيما يبدو كان يخشى أن يغامر بجيش المسلمين فى تلك البلاد؛ لأن مصيره فيها كان محفوفاً بأخطار ، أقلها ذلك المجهول الذى لا يلتصق فى أفقه نجم .

ولكن خشية موسى سرعان ما عادت أكثر من الأمن ، وأصبح تردده فى فتح تلك البلاد، تصميماً على اقتحامها بجيوش المسلمين. كان ذلك حينما تقدم إليه يوليان Julian حاكم سبته ، وعرض عليه تسليم سبته أولاً ثم المساعدة فى فتح إسبانيا ثانياً . وكانت سبته - على الأرجح - ولاية إفريقية تابعة للقوط يحكمها من قبلهم حاكم^(٢) ، وكانت إلى ذلك

Dozy : Historia de los musulmanes de Espana, pp. 318 ff.

(١) انظر :

(٢) يرى بعض الباحثين أن سبته كانت مستقلة ، ويرى البعض أن حاكمها كان إفريقياً من قبيلة

A. Gonzalez Palencia : Historia de la Espana musulmana, p. 9.

غمارة . انظر :

حصناً منيعاً من الحصون الإفريقية التي لم يخضعها المسلمون بعد ، كما كانت ثغراً له قيمته على مضيق جبل طارق ، يمكن أن يستخدم في العبور إلى جنوب إسبانيا . أما لماذا عرض يوليان هذا العرض السخي على موسى ؛ فسؤال للمؤرخين في الإجابة عنه أقوال عديدة ^(١) ترجع في جعلها إلى وجود ضغائن بين يوليان هذا وبين ملك القوط حينئذ ، المسمى رُذريق Rodrigo . ومهما يكن من أمر فقد رحب موسى بهذا العرض وأرسل أحد محاربيه واسمه طريف على رأس قوة صغيرة ^(٢) عبرت المضيق على سفن قدمها حاكم سبته ، ونزلت في جنوب شبه الجزيرة ، بمكان لا يزال يحمل اسم القائد المسلم إلى اليوم ، حيث يسمى جزيرة طريف Terifa . ثم عادت تلك السرية إلى شمال إفريقيا بما طمأن موسى وزاد رغبته في فتح تلك البلاد . وكان عبور هذه السرية إلى جنوب إسبانيا سنة ٩١ هـ - ٧١٠ م .

وفي السنة التالية (٩٢ هـ - ٧١١ م) أرسل موسى جيشاً كبيراً ^(٣) بقيادة طارق ابن زياد لفتح هذه البلاد . وقد عبر جيش طارق هذا المضيق الذي سمي باسمه فيما بعد ، ونزل من جنوب شبه الجزيرة في هذا المكان الذي سمي كذلك بجبل طارق . وكان عبور هذا الجيش على سفن لحاكم سبته ، كما كان يرافقه أدلاء من قبل هذا الحاكم .

وقد هزم طارق كل الحاميات التي تعرضت له بعد نزوله بالشاطئ الإسباني . ووصل نبأ طارق وجيشه إلى ملك القوط الذي كان في شمال شبه الجزيرة يخضع بعض

(١) من تلك الأقوال : أن ابنة يوليان كانت تربي كسائر بنات الأمراء في قصر الملك فاستحسنها واعتدى عليها . ومن الأقوال أيضاً : أن يوليان كان موالياً للأسرة المالكة السابقة التي انتزع لودريق الملك منها وهي أسرة غيطشة Vitiiza

(٢) كانت هذه القوة تتألف من ٥٠٠ مقاتل منهم ١٠٠ فارس . وقد عبرت على أربع سفن . انظر : أخبار مجموعة ص ٥ ، ٦ .

(٣) كان عدد هذا الجيش ٧٠٠٠ وأكثره من القبائل الأفريقية . ثم زيد الجيش إلى ١٢,٠٠٠ قبل أن يخوض طارق المعركة الفاصلة مع جيش القوط انظر : أخبار مجموعة ص ٦ ، ٧ .

التأثرين ، فأسرع بالعودة إلى طليطلة العاصمة ، واستعد بجيش كبير للقاء الفاتح المسلم . ولم ينتظر حتى تدخل عليه جيوش المسلمين عاصمته طليطلة ، بل اتجه بجيشه جنوباً للقاء طارق وجيشه .

وفي سهل شريش قرب مدينة قادس ، وعزد وادى لكّة^(١) Guadalete التقى الجيشان في معركة كبيرة انتهت بانتصار المسلمين وتشتت جيش القوط ، برغم تفوقه في العدد والعند على جيش المسلمين^(٢) . وبعد هذه المعركة الرئيسية الحاسمة أرسل طارق بعض محاربيه لفتح قرطبة وغرناطة ومالقة وغيرها من المدن والأقاليم ، ثم اتجه بأكثر الجيش إلى العاصمة القوطية طليطلة ، فدخلها وأسس دولة المسلمين في الأندلس على أنقاض دولة القوط .

وفي العام التالي (٩٣ هـ - ٧١٢ م) عبر موسى بن نصير إلى الأندلس بجيش جديد ، ونزل في مكان آخر هو الذي يسمى الآن بالجزيرة الخضراء Algeciras . ثم سار في طريق آخر غير الذي سلكه طارق ، وأخضع في طريقه عدداً من المدن والأقاليم التي لم تكن

(١) يسميه المؤرخ الأندلسي ابن القوطية . بوادى بكّة ، وعلى أية حال فهو نهر يصب في خليج قادس . ويقول دوزي : إنه النهر الذي يسمى الآن Río salado . على أن ليفي بروفنسال يرى أن المعركة دارت على شفة البحيرة المسماة Janda التي تتصل بنهر Barbate انظر :

Levi Provençal : La Espana musulmana, p. 19.

وانظر أيضاً : Sanchez Albornoz : La Espana musulmana, p. 36, vol. I.

وانظر كذلك : Dozi : Historia, p. 24, vol. I.

وانظر : من المصادر العربية : ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ص ٧ . وأخبار مجموعة ص ٨ . وابن حذاري ، البيان المغرب ج ٢ ص ١١ .

(٢) قيل إن عدد جيش لذريق كان ١٠٠,٠٠٠ أما لذريق فقليل إنه قتل في المعركة ، وقيل فر يعض قواته فقتل في معركة أخرى . انظر أخبار مجموعة ص ٩ .

وانظر كذلك : Palencia : Historia de la Espana musulmana, p. 10.

قد خضعت بعد ، مثل شذونة ^(١) وإشبيلية وماردة ^(٢) ، وبعد ذلك وصل إلى طليطلة ^(٣)

ويقال : إن موسى عنف مولاه طارق بن زياد ولامه كثيراً على توغله في البلاد توغلا
كان من الممكن أن يجلب الشر على جيوش المسلمين ، ويقال أيضاً : إنه لم يعنفه
فحسب ، وإنما قيده وضربه وكاد يقتله . وللمؤرخين في تصرف موسى إزاء طارق تفسيرات ،
بعضها يتهم موسى بالغيرة من طارق أو الحقد عليه . على أية حال فبعد هدوء تلك العاصفة
بين القائد العظيم سارا بالجيوش الإسلامية مخضعين كثيراً من أقاليم حوض نهر إلبرة
مثل إقليم سرقسطة . ثم تقاسما إخضاع بعض الأقاليم الشمالية ، مثل سوريا ^(٤)
وليون وبعض حصون أستورياس وجليقية ^(٥) .

وفي غمرة الانتصار ^(٦) استدعى موسى بن نصير إلى دمشق للقاء الخليفة على أن
يخون في صحبته طارق . فأوقف موسى الزحف ، وعاد إلى الجنوب ، وأصلح من شئون
الأندلس ما استطاع ، وولى ابنه عبد العزيز على البلاد ، وترك شبه الجزيرة واتجه مع طارق
إلى دمشق سنة ٩٥ هـ - ٧١٤ م .

وهكذا دخل المسلمون شبه الجزيرة الإيبيرية ، وكانت لهم فيها دولة بل دول .

(١) Sidonia

(٢) Merida

(٣) كان الجيش الذي عبر به موسى يتألف في أغلبه من العرب . وكان عدده ١٨,٠٠٠ من الجنود .

انظر : Levi : Espana musulmana, pp. 15 ff.

وانظر أيضاً : Palencia : Historia, p. 19.

وانظر كذلك أخبار مجموعة ص- ١٥ .

(٤) اسم إقليم في إسبانيا ، وهم يسمون سوريا التي هي من الأمة العربية (سيريا) Siria

(٥) Galicia

(٦) لم يتأكد ليبي بروفنسال من أن موسى عبر جبال البرانس إلى فرنسا . ولكن الأستاذ محمد عبد الله عنان
يذكر أن موسى عبرها ووصل إلى بربونة أو إلى ليون في فرنسا .

انظر : Levi, p. 18 . ومحمد عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس ص ٥٠ .

ومرت عليهم أحداث تاريخ طويل . وتتابع على البلاد أشكال من الحكم وصنوف من الحاكين . وليس هنا محل سرد شئ من ذلك أو تفصيل القول فيه . وحسبنا في هذا المقام أن نشير إلى أن هذا التاريخ الطويل الذى قارب ثمانية قرون ، يقسم عادة إلى عصور هي :

أولاً : عصر الولاة ، وهو ذلك العصر الذى يبدأ بالفتح الإسلامى سنة ٩٣ هـ - ٧١٢ م وينتهى بقيام دولة بنى أمية فى الأندلس على يد عبد الرحمن الداخل سنة ١٣٨ هـ - ٧٥٥ م .

ويسمى هذا العصر عصر الولاة ؛ لكون الأندلس كانت تحكم فيه بمواطة وال يعينه خليفة دمشق وأحياناً يعينه حاكم شمال إفريقيا .

ثانياً : العصر الأموى ، ويبدأ بتأسيس عبد الرحمن الداخل لدولة بنى أمية فى الأندلس ، تلك الدولة التى تبلغ ذروة مجدها فى عهد عبد الرحمن الناصر الذى يجعل منها خلافة عظيمة . وينتهى هذا العصر بانتهاء ملك بنى أمية هناك ، بعد سلسلة من الخلفاء العاجزين ، واختيار زعماء قرطبة لتنوع من الحكم الجمهورى سنة ٤٢٢ هـ - ١٠٣١ م .

ثالثاً : عصر ملوك الطوائف ، ويبدأ بسقوط الدولة الأموية وقيام عدة ممالك مستقلة ، تقسمت الأندلس معها إلى طوائف ، وعلى كل طائفة مُليك . وينتهى هذا العصر باستيلاء المرابطين على الأندلس بقيادة يوسف بن تاشفين سنة ٤٩٣ هـ - ١٠٩١ م .

رابعاً : عصر المرابطين ، ويبدأ باستيلاء ابن تاشفين وجيوشه الإفريقية على الأندلس ، وينتهى بحلول الموحدين محل هؤلاء المرابطين فى حكم إسبانيا الإسلامية سنة ٥٤١ هـ - ١١٤٦ م .

خامساً : عصر الموحدين : ويبدأ بحكم هؤلاء الإفريقيين للأندلس ، وينتهى

بسقوط دولتهم ، وانتزاع المسيحيين الإسبان للكمرة الغالبة من الأقاليم التي كانت في أيدي المسلمين ، وحصر الدولة الإسلامية الأندلسية في جزء جنوبي صغير هو مملكة غرناطة وذلك نحو سنة ٦٦٨ هـ - ١٢٦٩ م .

سادساً : العصر الغرناطي . ويبدأ بتأسيس مملكة غرناطة على يد ابن الأحمر ، وينتهي بتسليم هذه المدينة الإسلامية إلى الإسبان ، سنة ٨٩٨ هـ - ١٤٩٢ م .

على أن بعض الباحثين يولد من تلك العصور عصرين آخرين ، فيجعل فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين عصرًا ؛ ويجعل كذلك فترة ما بين عصر الموحدين والعصر الغرناطي عصرًا آخر ، ويسمى الأول عصر الطوائف الثاني ، ويسمى الآخر عصر الطوائف الثالث ^(١) . كما أن البعض يضم الفترات الأولى من الدولة الأموية ، وهي الفترات التي سبقت خلافة عبد الرحمن الناصر ، إلى فترة ما بعد الفتح الإسلامي ، وهي فترة الولاة ، ويسمى كل ذلك ، عصر الإمارة ويعني بذلك كل ما قبل الخلافة ، أو عصر الإمارتين ، ويعني بذلك إمارة غير الأمويين ثم إمارة الأمويين .

ومهما يكن من أمر فليس يعنينا من تلك العصور واختلاف أسماؤها شيء ، وإنما الذي يعنينا هو تلك المؤثرات السياسية والاجتماعية والثقافية التي تتصل بالأدب . لهذا لن نرتبط بهذا التقسيم تمام الارتباط ، لأن اختلاف المؤثرات الأدبية قد يكون أكثر خلال عصر سياسي واحد ، على حين لا يوجد كبير اختلاف بين عصرين سياسيين آخرين . ومن هنا سنهتدي فقط بهذه التقسيمات السياسية في درسنا للعصور الأدبية ، على أن نقسم العصر الواحد إلى فترات إن كان ذلك في صالح الدرس الأدبي ، وعلى أن نضم عصرين إن كان ذلك في صالح الدرس الأدبي أيضاً . وقد سبقت الإشارة إلى ذلك في غير هذا المكان .

(١) وذلك لوجود عصر أول يسمى عصر ملوك الطوائف هو الذي جاء على أعقاب سقوط الحكم الأموي

في الأندلس . ومن ساروا على هذا التقسيم : Al Bornoz : La Espana musulmana, vol. 2, p. 327.

٥ - المجتمع الأندلسي :

(أ) العناصر البشرية في الأندلس :

كان المجتمع الأندلسي مكوناً من عناصر شتى ، فقد كان فيه أهل البلاد الأصليون ، وفيه الوافدون من عرب وبربر ، ثم فيه الموالي المنسوبون إلى أقطار شرقية مختلفة ، والممالك المجلوبون من بلاد غربية عديدة .

أما أهل البلاد الأصليون ، فهم المسمون بعجم الأندلس ، وكانوا في أكثريتهم الغالبة من الإسبان .

وأما الوافدون ، فكان منهم العرب الآتون من المشرق ، وقد سمي أوائلهم - وهم من أتوا مع موسى بن نصير - باسم البلديين ، كما سمي من جاءوا بعدهم باسم الشاميين^(١) .

كذلك كان من الوافدين ، البربر الآتون من شمال إفريقيا ، والذين كان أوائلهم يؤلفون معظم جيش طارق بن زياد^(٢) .

وأما الموالي ، فقد أتوا في ركاب العرب منذ عبروا إلى الأندلس ، إذ كانوا مرتبططين بهم تابعين لهم ، حتى لقد نسيت بمرور الزمن أصول كثير منهم ، وعدوا فعلاً من القبائل التي تربطهم بها روابط الولاء .

وأما الممالك ، فكانوا يجلبون من عدة بقاع أوربية ، وخاصة من المناطق السلافية ، وكان تجار الرقيق من الجرمان وأشباههم يسبون هؤلاء السلافيين صغاراً ثم يبيعونهم .

(١) انظر في هذه التسميات المصادر التاريخية الأندلسية المتقدمة ، مثل تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ، ومثل أخبار مجموعة .

(٢) انظر أخبار مجموعة ص ٦ .

في أسواق إسبانيا . وقد عرف هذا النوع من الرقيق في الأندلس باسم الصقالبة ، ثم غلب الاسم على كل الرقيق حتى ولو لم يكن سلافياً^(١) .

وقد بدأ هؤلاء الصقالبة يظهرن في المجتمع الأندلسي كعنصر منذ أيام عبد الرحمن الداخل .

وليس معنى ما تقدم أن المجتمع الأندلسي كان مجتمعاً مهلهلاً بسبب اختلاف عناصره البشرية ، فالحق أنه برغم تعدد العناصر بين سكان الأندلس ، كانت الروابط القوية تشد بعضهم إلى بعض في أغلب الأحيان ، وتطبعهم بالطابع الأندلسي المميز . فقد كانت هناك دائماً البيئة المشتركة والثقافة المشتركة ، وقد كانت هناك غالباً الحكومة الموحدة والسياسة الموحدة ، ثم كانت هناك بعد ذلك الحضارة الأندلسية الرائعة ، التي تصيغ جميع العناصر بصبغتها الواضحة ، تلك الصبغة التي لا يكاد يفترق فيها بربري الأصل عن عربي الدم ، بل لا يكاد يميز معها إسباني الحدود من عربي الآباء .

على أن أهم ما جعل الوحدة البشرية في المجتمع الأندلسي ذات قوة تفوق ما كان من تعدد الأصول ، كون العنصر البشري الذي يمثل أكثر سكان الأندلس ، والذي يعتبر أبرز عناصر المجتمع ، هو العنصر العربي الممتزج على مر السنين بالعنصر الإسباني ، والمؤلف من هذا الامتزاج من هم أجدر سكان إسبانيا الإسلامية باسم الأندلسيين .

فلقد وفد العرب على إسبانيا في موجات هائلة ، وانتشروا في أقاليمها المختلفة انتشاراً متغلغلاً ، وكانوا يمثلون أكثر القبائل العربية ، العدنانية منها والقحطانية^(٢) .

وكان هؤلاء العرب قد وفد أكثرهم على إسبانيا في شكل جنود لا في شكل أسر ،

(١) انظر : الصقالبة في إسبانيا لذكور مختار المبادئ .

(٢) انظر تاريخ انتاح الأندلس لابن القوطية ص ٢٠ ونفع الطيب للمقرئ ج ١ ص ١٣٦ وما بعدها ، وجهرة أنساب العرب لابن حزم في كثير من فصوله .

أى أنهم لم يأتوا فى أغلب الأحيان بنسأهم وزرورجاتهم ، حتى يمكنهم الانعزال بشرياً عن سكان البلاد الأصليين ، وإنما كانوا بحالتهم التى جاءوا عليها مضطرين إلى الاتصال الأسرى بسكان شبه الجزيرة ، حتى يكونوا بالزواج من نساء البلاد أسرهم الجديدة التى ستربطهم بالوطن الجديد وتبقى نوعهم به .

وقد كان هؤلاء العرب الوافدون فى موجات ، من الكثرة بحيث يعتبر امتزاجهم بالإسبان عن طريق المصاهرة ، أمراً كافياً لجعل سلائل هؤلاء وهؤلاء أبرز عناصر المجتمع الأندلسى وأهم مكوناته البشرية .

فثلاً كان جيش موسى بن نصير مؤلفاً — فيما نقول بعض الروايات — من ثمانية عشر ألفاً من العرب ^(١) وكان جنود الشام الوافدون مع بلسج بن بشر فى عهد الولاة ، عشرة آلاف ، منهم ثمانية آلاف من بيوت العرب ، وألفان من الموالى ^(٢) . وكان جنود أبى الخطار الكلبي الوافدون فى عهد الولاة أيضاً من العرب ، ولا بد أن يكون عددهم كبيراً حتى يصلحوا للمهمة التى قدموا من أجلها ، وهى فض النزاع بين البلديين والشاميين ، وإقرار الأمن والنظام فى الأندلس ^(٣) . كذلك كانت موجة الأمويين وأنصارهم ممن أتوا خلال فترة تأسيس الإمارة الأموية بالأندلس عربية ، كما كانت ذات عدد لا يتصور إلا كبيراً ^(٤) ، نظراً لما هو معروف من اضطهاد العباسيين للأمويين وأنصارهم بالمشرق ، ولما هو معروف كذلك من ترحيب عبد الرحمن الداخل وأبنائه ببنى أمية الوافدين عليهم ، وبكل اللاتنين بهم من عرب المشرق عموماً .

(١) انظر Levi : Espana musulmana, pp. 15 ff. وأخبار مجموعة ١٥ .

(٢) يسمى جنود بلج الطالعة الأولى .

(٣) يسمى جنود أبى الخطار بالطلعة الثانية ، وتسميتهم طالعة كما سى جنود بلج تؤكد ما نتصوره

من كثرتهم ، انظر تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٥ ، ١٩ .

(٤) انظر نفع الطيب ج ٢ ص ٧٣ .

وهكذا نرى أن المجتمع الأندلسي كان متعدد العناصر والأصول ، ولكنه كان مع ذلك متحد الطابع في جملته ، وخاصة حين برز أهم عناصره البشرية ، وهو العنصر الذي تبرز فيه الدماء العربية بالدماء الإسبانية والذي يؤلف الأندلسيين الجديرين بهذه التسمية .

(ب) أصل الأندلسيين :

على أن الباحثين يختلفون في أصل الأندلسيين ، ويتعارضون أشد التعارض في اختيار الجنس البشري الذي يندرجون تحته . فبعضهم — والشرقيون منهم بصفة خاصة — يرون أن هؤلاء الأندلسيين عرب ، قد رحلوا من مواطن العرب في المشرق ، وعاشوا في الأندلس محافظين على عروبتهم ، متمسكين بأنسابهم وسلاسل قبائلهم ^(١) . والبعض الآخر — والمستشرقون الإسبان بصفة خاصة — يرون أن الأندلسيين ليسوا إلا إسباناً مسلمين ، فهم ليسوا عرباً وليسوا شرقيين ، وإنما هم إسبان وغربيون ، دينهم الإسلام ولغتهم العربية ^(٢) .

والسبب في تمسك الباحثين الشرقيين بعروبة الأندلسيين كالسبب في تمسك الباحثين الغربيين بإسبانية هؤلاء الأندلسيين ، فكلا الفريقين يعتز بهم ويحاول أن يكسب حضارتهم إلى حضارته ، ويضيف علمهم إلى علمه ، ويعد أدبهم من تراث أدبه . وربما كانت وجهة نظر الباحثين الشرقيين أقدم وجهتي النظر ^(٣) ، فالمسلمون منذ أقدم عصور الأندلس يعتبرون الأندلسيين عرباً منهم ، تراثهم تراثهم وأدبهم أدبهم وحضارتهم حضارتهم ، وكل الذي كانوا يخصون به الأندلسيين أن يعدوهم أحياناً أهل المغرب ،

(١) انظر مصطفى صادق الرافعي ، تاريخ آداب العرب ج ٣ ص ٢٦٧ وما بعدها .

(٢) Julian Ribera : Disertaciones y opusculos, vol. I, pp. 12 ff.

(٣) انظر المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ٣٦ وابن الخطيب : الإحاطة ج ١ ص ٣٥ .

على اعتبار أن المغرب الإسلامى يشمل شمال إفريقيا والأندلس ويقابل المشرق الذى يشمل الحجاز والشام والعراق ومصر .

وفكرة الشرقيين قديماً وحديثاً فى اعتبار الأندلسيين عرباً ، تقوم على هذا التقليد العربى الذى ينسب الولد إلى أبيه ، فإدام آباء الأندلسيين كانوا عرباً فى الأصل ، فالأبناء والأحفاد وكل الأجيال عرب كذلك ، ينتمون كأبائهم إلى عدنان وقحطان .

أما فكرة الغربيين وخاصة الإسبان ، فى اعتبار الأندلسيين إسباناً مسلمين ، فقد نشأت أخيراً وبدأ الاتجاه إليها فى القرن الماضى تقريباً حينما انحسرت موجة الكراهية التى كانت تغمر قلوب الأوروبيين - وخاصة الإسبان - ضد مسلمى الأندلس ؛ فقد كانوا قديماً يعتبرونهم غزاة وفاتحين ومحتلين ، ومن هنا جاءت محاربتهم ومطاردتهم وإخراجهم .

ثم ظهر بعض الباحثين المنصفين ، الذين أشادوا بفضل المسلمين على أوروبا كلها لا على إسبانيا وحدها ، وبينوا ما كان هؤلاء المسلمين من فضل على العلم والأدب والحضارة الأوروبية جميعاً ؛ وانتقدوا لذلك تلك المعاملة القاسية التى لقيها هؤلاء المسلمون على أيدي المسيحيين ، وأخذت الأبحاث تتابع فى بيان ما لمسلمى إسبانيا من التأثير فى الفلسفات والآداب والفنون الأوروبية على وجه العموم^(١) .

(١) من أقدم الأبحاث التى نهت إلى فضل الأندلسيين على الحضارة الأوروبية بحث القس خوان أندريس Juan Andres ، كُتِبَ فى القرن الثامن عشر عن أثر الثقافة الأندلسية فى الثقافة الأوروبية . وكان هذا القس يسوعياً ، طرد من إسبانيا وفصل من الجماعة .

ومن أعظم الأبحاث فى هذا الشأن ، أبحاث المستشرق الإسباني Asin Palacios عن الفلسفة الإسلامية وعلاقتها بالفلسفة الأوروبية . ثم بحثه الجليل عن تأثير دائنى بالإسلام فى الكوميديا الإلمية . وكذلك من أمتع الأبحاث فى تأثير الأندلسيين ، أبحاث المستشرق الإسباني Julian Ribera عن تأثير الشعر الأندلسى فى الشعر الأوروبى ، والموسيقى الأندلسية فى موسيقى الإسبان إلخ .

وأخيراً تبنى مستشرقو الإيبان وعلى رأسهم العلامة «خوليان ريبيرا» Julian Ribera فكرة الأصل الإيباني لمسلمي الأندلس . ويعتبر «خوليان ريبيرا» أول من حاول إثبات هذه النظرية والتدليل عليها من الوجهة العلمية ؛ فهو يرى أن العرب الذين دخلوا شبه الجزيرة أيام الفتح إنما دخلوا — كما هو معروف — على هيئة جنود ، ولم ينتقلوا إليها كأسر ، وكان لابد لهؤلاء المحاربين من أن يكونوا البيوت وينجبوا النسل ، وكانت الإيبانيات الجانب الآخر في تكوين هذه الأسر وإنجاب ذلك النسل . وقد أقبل على هذا الزواج المختلط أول أمير عربي ولى أمر الأندلس بعد الفتح ، وهو عبد العزيز بن موسى بن نصير كما أقبل عليه غيره من العرب ، حيث شرع لهم أمراؤهم سنة الزواج بالإيبانيات حتى لقد ثبت أن جميع أمراء وخلفاء الأسرة الأموية في الأندلس كانوا أبناء لغير عربيات . وإذا كان الولد — في الحقيقة — ابناً لأبيه كما هو ابن لأمه ، وإذا كانت خصائص الوراثة يأخذها الوليد عن أسرة أمه كما يأخذها عن أسرة أبيه ، إذا كان ذلك أمكن القول بأن العرب الداخلين قد ذابوا في الجنس الإيباني حتى لم يعد للواحد منهم سوى قطرات قليلة من الدم العربي تمتزج بدمه الإيباني الذي يكاد يكون خالصاً .

ويجري الأستاذ «ريبيرا» تجربة على الأسرة الأموية التي حكمت في الأندلس فيقول ما خلاصته : إن عبد الرحمن الداخل كان يحمل فقط نصف دم عربي ، لأنه كان من أم غير عربية ، وكذلك ابنه هشام لا يحمل إلا ربع دم عربي لأن أمه كانت أيضاً غير عربية . وهكذا تتناقص نسبة الدم العربي كلما مضينا من أمير إلى آخر ، بينما تتضاعف نسبة الدم الأجنبي ؛ فالحكم ابن هشام ليس له من الدم العربي إلا الثمن ، وعبد الرحمن الأوسط ، ليس له إلا جزءاً من ستة عشر جزءاً ، والأمير محمد ليس له إلا جزء من اثنين وثلاثين جزءاً ، والمنذر بن محمد ليس له إلا جزء من أربعة وستين جزءاً ، وكذلك أخوه عبد الله . ثم يأتي بعدهما محمد بن عبد الله (وهو لم يحكم) وفي دمائه جزء من مائة وثمانية وعشرين جزءاً . ثم يأتي بعد ذلك عبد الرحمن الثالث الملقب

بالناصر ، وليس له من الدم العربى إلا جزء من مائتين وستة وخسين جزءاً . أما ابنه الحكم الثانى ، فليس له تبعاً لذلك إلا جزء من خمسمائة وأثنى عشر جزءاً . وأخيراً يأتى هشام الثانى فلا يكون له من الدم العربى إلا جزء من ألف وأربعة وعشرين جزءاً ^(١) .

ولسنا ننكر الدافع الكريم الذى حمل الأستاذ « ريبيرا » على محاولة إثبات أن الأندلسيين إسبان مسلمون ؛ فهو يعترف بالأندلسيين ويحاول كسب الحضارة الأندلسية وضمها إلى التراث الإشباني ، ولكننا مع ذلك لا نستطيع أن نذهب مع الأستاذ ريبيرا فيما ذهب إليه من تجريد الأندلسيين من عربيتهم ، ولا نستطيع كذلك أن نسلم بتلك التجربة التى أجراها على الأسرة الأموية الأندلسية كدليل على ذوبان الدم العربى فى الدم الإشباني ؛ لأننا لا نتصور أولاً أن كل الذين جاءوا إلى الأندلس من الرجال قد تركوا نساءهم فى المشرق ، ولأننا لا نتصور ثانياً أن الوفود على الأندلس كان دائماً من نصيب الرجال دون النساء ، ولأننا لا نتصور ثالثاً أن كل عربى فى الأندلس كان ينجب دائماً من إشبانية جديدة ، وإن كان قد تصادف ذلك فى الأسرة الأموية . فالملقول أن توجد مولدات من أب عربى وأم إشبانية ، وأن الزيجات الغالبة كانت تتم بعد الجيل الأول من هؤلاء المولدات ، وبهذا احتفظ الأندلسيون من غير قصد بنصف الدم العربى على الأقل . وإلا فكيف يتصور بناء على المثال الذى ضربه الأستاذ « ريبيرا » أن كل زيجة من عربى وإشبانية تنتج رجالاً فقط يضطرون إلى الزواج من جديد بإشبانيات خالصات ؟ أو أن الزيجات المختلطة كانت تنتج بنات وبنين . لكن البنات لا يتزوجن بل يكون الزواج دائماً من إشبانيات جديدات ؟ !

لهذا كله نفضل الأخذ بأصل نظرية الأستاذ « ريبيرا » دون المضى معها إلى آخر الشوط ، ودون التسليم بما يريد لها من نتائج . بمعنى أننا نسلم أن العرب الداخلين قد كانوا يتزوجون من إشبانيات . وأن هذه الزيجات ، أنتجت فعلاً جيلاً من الأندلسيين

تحتج فيه الدماء العربية بالدماء الإسبانية امتزاجاً تتساوى فيه العناصر العربية والإسبانية تقريباً . ثم إن الأمر ظل على هذا غالباً ، نظراً لكون هذا الجيل الأول من المولدين ستحدث بين بنيه وبناته زيجات يحافظ فيها على نسبة الدم العربي ، ويظل الأمر على ذلك ما تتابعت الأجيال .

وإذن فالأندلسيون من حيث الأصل شعب فيه دماء عربية وفيه كذلك دماء إسبانية ، وفيه تبعاً لذلك كله وورثات من العرب والإسبان جميعاً .

بقي أن نقرر أن هؤلاء الأندلسيين وإن كانوا مولدين جنساً ومختلطين دماء ، فهم عرب في قوميتهم ، لأنهم عرب في عقيدتهم وثقافتهم ولغتهم وكل جوانب حضارتهم . فإذا كانت لهم بعض خصائص الإسبان في الشكل أو في الطبع ، فإن لهم جل خصائص العرب فيما وراء الشكل والطبع . ومن هنا كان تراثهم تراثاً عربياً يأخذ مكانه بين تراث العرب على مر العصور . أما ما قد يكون لهم من خصائص نفسية أو عقلية تبعاً لما ورثوه من أمهاتهم الإسبانيات ، فشئ نحترمه في الدرس الأدبي ونعني به ويليزازه ما أمكن . وليس معنى ذلك أننا نقول بإسبانيته كما يقول الأستاذ ريبيرا ، ومن جواره من المستشرقين ، وإن كنا نشكر لهم إعجابهم بأبناء عمنا الأندلسيين ، ومحاولة إلصاقهم بهم وضم تراثهم إلى ما للإسبان من تراث .

(ج) الديانات في الأندلس :

انتشر الإسلام بسرعة فائقة بين سكان شبه الجزيرة . ولعل من أهم أسباب ذلك ، أن الأرقاء الذين كانوا يرزحون تحت نير الأشراف في العهد القوطي ، قد وجدوا الإسلام طريقهم إلى الحرية ، فأقبلوا عليه ليفك أغلالهم ويعيد كرامتهم . على أن الأرقاء لم يكونوا وحدهم الذين اعتنقوا الإسلام في سرعة من بين أبناء شبه الجزيرة ، فقد شاركهم

في هذا الإقبال على الإسلام كثير من الأحرار ، أعجب بعضهم بالإسلام والمسلمين ، وأحب بعضهم الآخر أن يحافظ على الأرض التي تحت يده ، أو أن يخلص نفسه من عبء الجزية ، أو أن يرفع مكانته الاجتماعية بالانضمام إلى الممتازين أصحاب الدين الجديد وأولى الأمر أيضاً^(١) .

ولذا لم يلبث الإسلام أن نحى النصرانية عن عرشها في شبه الجزيرة ، وصارت الغالبية العظمى من أهل البلاد مسلمين ، وصاروا يسمون بالمسالمة ، كما صار أبناؤهم يسمون بالمولدين . وإنما قلنا : الغالبية العظمى ؛ لأن المسلمين لم يكونوا يعيشون وحدهم في هذا المجتمع الكبير ، بل كانت تشاركهم أقلية من المسيحيين ، وكانت تلك أقلية كبيرة إن صح هذا التعبير . وقد ترك المسلمون لهؤلاء المسيحيين حريتهم في البقاء على دينهم ، وفي مزاوله شعائهم ، فتجاورت المساجد والكنائس في ساحة ، واختلطت نداءات المآذن بدقات الأجراس في محبة ، وتعايش المسلمون والمسيحيون في الأندلس على أخوة .

وقد بهرت الحضارة الإسلامية هؤلاء المسيحيين الذي كانوا يعايشون المسلمين في الأندلس ، فأخذوا من هذه الحضارة ومن أصحابها الشيء الكثير ، فقلدوا المسلمين في لغتهم وتعلموا ثقافتهم ، بل لبسوا ملابسهم وعاشوا إلى حد كبير على نمط حضارتهم ، ولذلك سمو بالمستعربين Mozarabes

ولم يكن هؤلاء المستعربون هم وحدهم الذين يعايشون المسلمين من أصحاب الديانات الأخرى . فقد كانت إلى جانبهم جاليات يهودية ، وجدت من المسلمين كثيراً من التسامح وحسن المعاملة ، بعد أن وجدت في فتحهم لأسبانيا منقذاً من الجور ، الذي كان اليهود يرزحون تحت نيره أيام القوط^(٢) .

Levi : Espana musulmana, pp. 46 ff.

(١)

(٢) انظر المصدر السابق ص ٤٨ وما بعدها .

وانظر Palencia : Historia, pp. 124 ff.

وقد بلغ تسامح المسلمين مع المسيحيين واليهود الذين يعيشون في ظلال الحكومة الأندلسية، درجة تحمل على الإعجاب؛ فقد كان الأكفاء منهم موضع إجلال الحكام ومحل ثقة الأمراء والخلفاء، كما كانت لهم في أغلب الأحيان مناصبهم الكبيرة، التي ترشحهم لها كفاءتهم دون عائق من دينهم المخالف لدين الدولة. ومن أمثلة من تمتعوا بالجاه والمنصب من المسيحيين، «أرطباس» الذي كان محل ثقة بعض ولاة الأندلس، حتى كانوا يستشيرونه في أمور البلاد، والذي كان أيضاً موضع تكريم الأمير عبدالرحمن الداخل، حتى رد عليه عشرين ضيعة وولاه القماسة، فكان أول قومس بالأندلس^(١). ومن أمثلة هؤلاء المسيحيين كذلك «حيزون» الذي كان قاضياً للنصارى بقرطبة في أيام الحكم المستنصر، والذي كانت تسند إليه مهمة الترجمة بين الخليفة وكبار الإسبان في بعض الأحيان^(٢).

ومن أمثلة من تمتعوا بالجاه والمنصب من اليهود، «حسداى بن شبروط» الطبيب، الذي كان من كبار رجال الخليفة الناصر، كما كان من ذوى النفوذ الواضح لدى المستنصر^(٣). ومنهم كذلك «صمويل بن النغرلة» الأديب، الذي كان وزيراً لباديس ملك غرناطة في عهد الطوائف.

وإذا استثنينا بعض الحوادث القليلة، يمكن أن يقال: إن تلك الأقليات غير المسلمة لم تضطهد من المسلمين إلا حين سيطر الإفريقيون من مرابطين وموحدين على الأندلس.

(د) اللغات في الأندلس :

وكما انتشر الإسلام بسرعة فائقة في شبه الجزيرة، انتشرت اللغة العربية كذلك على نطاق أوسع بين سكان هذه البلاد.

(١) انظر : تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ٣٨ وما بعدها .

(٢) انظر : نفع الطيب للمقرى ج ١ ص ١٨٢ .

(٣) انظر : طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ٥٠ .

وقد كان هؤلاء العرب الوافدين على الأندلس في شكل موجات كبيرة ، أثر كبير في نشر اللغة العربية في شبه الجزيرة . ولاشك أنه يضاف إلى ذلك إقبال أهل شبه الجزيرة أنفسهم على اللغة العربية ، لا فرق في ذلك بين مسلم وغير مسلم ، نظراً لكونها لغة الحضارة الغالبة والعلم المستفوق ، ولسان الممتازين ذوى السلطان . ولا أدل على مدى انتشار اللغة العربية في عصر مبكر بين المسيحيين أنفسهم ، من تلك الشكوى التي أطلقها أحد قساوستهم ، واسمه « ألفرو » القرطبي ^(١) Alvaro cordobes حيث يقول : « إن إخواني في الدين يجدون لغة كبرى في قراءة شعر العرب وحكاياتهم ، ويقبلون على دراسة مذاهب أهل الدين والفلسفة المسلمين ، لا ليردوا عليها ويتقضوها . وإنما لكي يكتسبوا من ذلك أسلوباً عربياً جميلاً صحيحاً . وأين نجد الآن واحداً من غير رجال الدين يقرأ الشروح اللاتينية التي كتبت على الأناجيل المقدسة ؟ ومن سوى رجال الدين يعكف على دراسة كتابات الحواريين ، وآثار الأنبياء والرسل ؟ يا للحسرة !! إن المهويين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب وآدابها ، ويؤمنون بها ويقبلون عليها فيهم ، وهم ينفقون أموالاً طائلة في جميع كتبها ، ويفخرون في كل مكان بأن هذه الآداب حقيقة جديدة بالإعجاب . فإذا حدثهم عن الكتب النصرانية أجابوك في ازدراء بأنها غير جديدة بأن يصرفوا إليها انتباههم . يالللأم !! لقد أنسى النصارى حتى لغتهم فلاتكاد تجد في الألف منهم واحداً يستطيع أن يكتب إلى صاحبه كتاباً سليماً من الخطأ . فأما عن الكتابة في لغة العرب ، فإنك واجد منهم عدداً عظيماً يجيدونها في أسلوب منمق . بل هم ينظمون من الشعر العربي ما يفوق شعر العرب أنفسهم فنّاً وجمالاً » ^(٢)

(١) كان في أيام عيد الرحمن الأوسط ، وكان من الذين أسهموا في إثارة النصارى وإشغال الفتنة المسماة ، بحركة الاستشهاد في منتصف القرن التاسع الميلادي .

Palencia : Historia de la Literatura arabego-espana, p. 295.

(٢) انظر :

وانظر : تاريخ الفكر الأندلسي (وهو ترجمة المصدر السابق إلى العربية ، قام بها الدكتور حسين مؤنس) ص ٤٨٥ - ٤٨٦ .

وهكذا زحزحت العربية اللاتينية عن عرشها في شبه الجزيرة كما زحزح الإسلام المسيحية أيضاً . وبهذا صارت العربية اللغة الرسمية للبلاد ، كما صار الإسلام دينها الرسمي كذلك .

وقد صارت فصحي الأندلس بمرور الزمن وبحكم البيئة الجديدة ، وبسبب احتكاك عناصرها المختلفة ، ذات خصائص محلية تميزها بعض التميز عن فصحي الأقاليم العربية الأخرى .

وقد كان من هذه الخصائص ما يتصل بالناحية الصوتية ، كما كان منها ما يتصل باستعمال الألفاظ ، فما يتصل بالناحية الصوتية ، نطق الأندلسيين للقاف قريبة من الكاف ^(١) ، وغلبة الإمالة عليهم ^(٢) . وما يتعلق باستعمال الألفاظ ، اشتقاقهم لكثير من الكلمات ، واقتراضهم لأخرى ، ثم تخصيصهم لأسماء هي في الأصل لمسميات عامه ، وتعميمهم لأخرى هي في حقيقتها لمدلولات خاصة . وربما كان هذا الجانب المتصل باستعمال الألفاظ هو أبرز الجوانب التي تميز عربية الأندلس بعض التمييز . فقد كانت لهم ألفاظ خاصة كثيرة ، منها ما يختص بالإدارة وشئون الحكم ، ومنها ما يتعلق بالزراعة وري الأرض ، ومنها ما يرتبط بالبناء ووسائل العمران ، ومنها ما يتصل بالرى وأدوات الزينة ، وكلها ألفاظ خاصة بالأندلسيين تقريباً ، لا يكاد يستعملها غيرهم على النحو الذي عرفت عليه عندهم .

فما يختص بالإدارة وشئون الحكم ، إطلاقهم كلمة « الوزير » على كل من يجالس الخليفة أو الملك ويعتبر من خاصته ، وإن لم يشغل هذا المنصب الرسمي المعروف . وإطلاقهم كلمة « الحاجب » أو « ذى الوزارتين » على من يكون في هذا المنصب الوزارى

(١) انظر : نفح الطيب للمقرئ ج ١ ص ٥٩٢ ، ٥٩٣ .

(٢) انظر : الإحاطة لابن الخطيب ج ١ ص ٣٥ .

الرسمى خاصة ^(١) . وما يتصل بالإدارة وشئون الحكم كذلك إطلاقهم كلمة « خطة » على ما يعرف بالإدارة ؛ فهم يقولون : « خطة الشرطة » و « خطة القضاء » و « خطة السوق » و « خطة الاحتساب » بمعنى الإدارات المسئولة عن تلك الشؤون ^(٢) . وما يتصل بذلك أيضاً إطلاقهم كلمة « المسدد » على حاكم البلدة الصغيرة ^(٣) ، وكلمة « الدراب » على حارس الدرب ^(٤) .

وما يتعلق بالزراعة والرى ، إطلاقهم كلمة « المحشر » على الضيعة . وقد أخذوا الكلمة من « الجحشر » وهو القوم الذين يخرجون إلى المرعى بدوابهم ويبيتون مكانهم ^(٥) . وما يتعلق بهذا أيضاً ، إطلاقهم كلمة « الوادى » على النهر خاصة ، والكلمة فى الأصل لكل منخفض من الأرض بين جبال أو تلال ^(٦) . ومن هذا القبيل كذلك تخصيصهم كلمة « باكور » بما بكر من التين ، وإنما الكلمة لكل ما بكر من الثمار ^(٧) .

وما يرتبط بالبناء ووسائل العمران ، إطلاقهم كلمة « البلاط » على البيت المحسن ^(٨) وكلمة « الأسطوان » على الدهليز ^(٩) ، وكلمة « الثرية » على مجموعة المصابيح ^(١٠) .

وما يتصل بالزى وأدوات الزينة ، إطلاقهم كلمة « الغفارة » على البرنس أو نوع

(١) انظر النفح ج ١ ص ١٠١ .

(٢) انظر النفح ج ١ ص ١٠١ .

(٣) انظر النفح ج ١ ص ١٠١ .

(٤) انظر النفح ج ١ ص ١٠١ .

(٥) انظر : ألفاظ مغربية ، للدكتور عبد العزيز الأهواني ص ٢٧ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٢٥ .

(٦) انظر ألفاظ مغربية ص ٦٦ .

(٧) انظر ألفاظ مغربية ص ١٩ .

(٨) انظر : ألفاظ مغربية ص ٢٦ .

(٩) انظر : ألفاظ مغربية ص ١٦ .

(١٠) انظر : ألفاظ مغربية ص ٢٥ .

من الطليسانات ^(١) ، وتخصيصهم كلمة « الأرجوان » بالصوف الأحمر ^(٢) ، وكلمة « الحمار » بشقاق الحرير التي تغطي بها المرأة رأسها ^(٣) . ومعروف أن الأرجوان في حقيقته للأحمر من الصوف وغيره ، وأن الحمار لكل ما خرت به المرأة رأسها من الثياب وهناك كثير جداً غير هذه الألفاظ مما استعمله الأندلسيون لمسميات حضارية ، كإطلاقهم « الجفافة » على ما يجفف به من قطع قماش قطني أو صوفي ^(٤) ، وإطلاقهم « الببطين » على ما يوضع حول عنق الصبي من قطعة قماش تصون ثيابه من اللعب ^(٥) وإطلاقهم « الدادة » على المربية ^(٦) .

وليس المراد حصر تلك الألفاظ الأندلسية ولا بيان أصولها . وإنما المراد فقط إيضاح كيف تميزت عربية الأندلسيين عن عربية الأقاليم الأخرى بعض التمييز ^(٧) .

وكما كان الإسلام لا يعيش وحده في قلب شبه الجزيرة الأندلسية ، كانت اللغة العربية كذلك لا تحيا وحدها على لسان تلك البلاد . فلقد ثبت أن الفصحى وإن كانت اللغة العلمية والأدبية والرسمية ، قد عاشت إلى جانبها اللغة العامية ، كوسيلة للحديث العادي . وهذا أمر طبيعي تؤيده الظواهر اللغوية في كل لغة وفي كل قطر تقريباً ^(٨) ، حتى لا نحتاج معه إلى أدلة خاصة تؤيد حياة هذه العامية الأندلسية

(١) انظر : ألفاظ مغربية ص ٤٦ .

(٢) انظر : ألفاظ مغربية ص ١٥ .

(٣) انظر : ألفاظ مغربية ص ٣٠ .

(٤) انظر : ألفاظ مغربية ص ٢٨ .

(٥) انظر : ألفاظ مغربية ص ٣٠ . والكلمة لها ما يقابلها بالإسبانية مثل : Babadero مما يدل على أصلها اللاتيني المحلي .

(٦) انظر : ألفاظ مغربية ص ٣١ .

(٧) في الملحق الذي وضعه « دوزي » للمعجم العربية كثير من هذه الألفاظ ، وكذلك البحث الذي نشره الدكتور عبد العزيز الأهواني باسم . « ألفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمي في لحن العامة » .

(٨) انظر : الدكتور إبراهيم أنيس : اللهجات العربية ص ٢٤ وما بعدها .

إلى جانب الفصحى . ومع هذا هناك أدلة عديدة تؤكد أن الأندلسيين كانت لهم عامية عربية يستخدمونها في حياتهم اليومية . ويتكلمون بها في حديثهم البعيد عن العلم والأدب والرسميات . ومن تلك الأدلة ما يتصل بالقرون الأولى لحياة المسلمين في الأندلس ، ومنها ما يتصل بالقرون الأخيرة لحياتهم هناك .

فقد ذكر ابن بسام في حديثه عن أول أندلسي اخترع الموشحات ، أن ذلك المخترع كان « يأخذ اللفظ العامي والعجمي ويسميه المركز ، ويضع عليه الموشحة »^(١) وليس يعنيها الآن تفصيل القول في هذا المخترع ولا في طريقة عمله للموشحات ، لأن ذلك سيفصل في مكانه من هذا البحث^(٢) ، وإنما الذي يعنيها أن نشير إلى أن ذلك المخترع مُقَدِّم بن معافى القَبْرِي كان — كما يقول ابن بسام — يعتمد على اللفاظ العامية كمرکز لموشحاته ، ومقدم هذا قد عاش في أواخر القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) فكأن الأندلسيين كانت لهم في تلك السنين المتقدمة من حياتهم في الأندلس عامية يعتمد عليها مثل هذا الفنان فيما يصوغ من موشحات .

كذلك يذكر ابن سعيد المغربي ، وهو من أدباء القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) « أن كلام أهل الأندلس الشائع في الخواص والعوام كثير الانحراف عما تقتضيه أوضاع العربية ، حتى لو أن شخصاً من العرب سمع كلام الشَّلوْبِيْنِي أبي على المشار إليه بعلم النحو . . وهو يقرئ تلاميذه لضحك بملء فيه من شدة التحريف الذي في لسانه . والخاص منهم إذا تكلم بالإعراب وأخذ يجرى على قواعد النحو استثقلوه واستبردوه »^(٣) .

وحديث ابن سعيد يفيد — كما هو واضح — أن الأندلسيين ، بل الثقفين

(١) ابن بسام : الأخيرة في محاسن أهل الجزيرة ق ١ م ٢ ص ١ .

(٢) انظر الفقرة الخاصة باختراع الموشحات في الفصل الثالث من هذا الكتاب .

(٣) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ١٠٣ .

والعلماء منهم . كانوا يتكلمون عامية كثيرة الانحراف عما تقتضيه أوضاع العربية ، وأن تلك الظاهرة كانت موجودة بين الأندلسيين ، وليست فقط في عهودهم الأولى بشبه الجزيرة ، حيث يمكن أن يقال إن العربية لم تكن قد استقرت بعد ، وإنما كانت موجودة أيضاً في عهودهم المتأخرة ، حيث مضت قرون على دخول العربية إلى الأندلس ، وحيث انتشر تعليمها وتعددت معاهدها وكثر أساتذتها وشاعت مؤلفاتها .

وقد كانت هذه العامية الأندلسية ذات سمات محلية ما زالت تزداد بمرور الزمن ، حتى جعلت من تلك اللهجة شيئاً غريباً عسير الفهم على غير الأندلسيين وقد كان من تلك السمات ^(١) ما يلي :

إدماج الفعل المساعد (كان) في الفعل المضارع الذي يتلوه ، بحيث تحذف نون (كان) وتبقى الكاف فقط ، فيقال في كان يقول « كيقول » .

إدماج (في) الجارة ، في الاسم الداخلة عليه ، والاكتفاء أحياناً بالفاء متصلة بهذا الاسم ، ونطقها بين الكسر والفتح .

استعمال ظروف خاصة هي ليست في الأصل ظروفاً ، مثل استعمال كلمة (عاد) بمعنى (بعد) التي تأتي عادة مع الفعل المنقى ، فيقال « لم أفعل هذا عاد » بدلا من « لم أفعل هذا بعد » . ومثل استعمال الحرف (يا) ظرفاً للحال ، فيقال « يا أكلت » بدلا من « قد أكلت الآن » .

استعمال المنقى بالياء والنون دائماً وإبقاء الفتحة قبل الياء . واستعمال فعل الأمر للمذكر والمؤنث بلفظ واحد . واستعمال المضارع المسند للمتكلم وحده أو المتكلم ومعه

(١) استخرج هذه السمات وكثيراً غيرها الأستاذ الدكتور عبد العزيز الأهواني في بحثه عن « الزجل في الأندلس » . انظر مقدمة هذا المرجع ، صفحات : ز ، ح ، ط ، وانظر شرحه لما يرد في النصوص من ألفاظ أندلسية عامية .

غيره بالنون في الحالتين ، فيقال في « أقوم » « تقوم » . ومن هذا التوسع في الاستعمال أيضاً . عدم تخصيص (قد) بالفعل ، وإدخالها على الاسم .

تسكين أواخر الكلمات ، وتحريك هذه الأواخر بالفتح حين يراد التخلص من الساكنين .

قطع بعض الكلمات ، وكتابتها على حالها بعد القطع ، فيقال مثلاً : (هـ) أى « هو » ويقال (لـ) أى « له » .

استعمال كثير من الألفاظ غير العربية . وأبرز ما كان من ذلك ، تلك الألفاظ المقرضة من اللاتينية المحلية ، مثل (أَلَمًا) أى نفس . و(أَلْبَا) أى فجر ، و(إَشْتِ) أى هذا ، و (مَطَرُ) أى أم^(١)

كذلك ثبت أن الأندلسيين لم يكونوا يعرفون العربية فصحي وعامية فقط ، وإنما كانوا يعرفون إلى جانبها لغة أجنبية أخرى ، هي إحدى اللهجات العامية المتفرعة من اللاتينية . وكانت هذه اللاتينية العامية لغة الإسبان عند الفتح العربى . لأننا نعرف أن اللاتينية كانت قد دخلت إسبانيا مع الرومان ، وطبعى أن تتطور هذه اللاتينية على ألسنة الإسبان بعد انتقالها من موطنها الأصلي إلى شبه الجزيرة الإيبيرية . ومن هنا كانت تلك اللهجة اللاتينية العامية التى يسميها العلماء « رومانثى » Romance ، ثم كانت معرفة مسلمى الأندلس لها عن طريق هذا الامتزاج التام الذى حدث بين العرب الوافدين وكثير من الإسبان الأصليين بسبب كثرة الزيجات العربية الإسبانية ، وإنتاج أجيال جديدة يتكلم آباؤها العربية وأمهاتها الرومانثى ؛ فطبعى أن يعرف الأبناء لغة الأمهات كما يعرفون لغة الآباء^(٢) .

(١) هذه الألفاظ يقابلها في الإسبانية : Alina Alba. Este. Madre .

(٢) صاحب نظرية معرفة الأندلسيين لهذه اللاتينية العامية هو المشرق الإسبانى (خوليان ريبيرا)

. Julian Ribera

انظر كتابه : Disertaciones y opusculos, vol. 1, pp. 28 ff

كذلك كانت معرفة الأندلسيين بتلك اللغة غير العربية ، عن طريق دخول أسر إسبانية كثيرة في الإسلام ، وهي تعرف لغتها الأصلية بطبيعة الحال . إلى جانب اللغة العربية المتعلمة .

ثم لا يمكن أن يغفل هذا التعايش المتصل بين من ينتمون إلى أصول عربية وهم المسلمون ، ومن ينتمون إلى عناصر إسبانية وهم المسيحيون ، فهؤلاء لغتهم الأصلية « الرومانثي » ، ومن شأن المعاشة أن تتيح لكل من المتعايشين التعرف على لغة صاحبه .

وليس يُعتمد فقط على تلك الأدلة النظرية ، لإثبات معرفة الأندلسيين باللغة « الرومانثي Romance » بل هناك كثير من الأدلة التي تؤيد معرفة مسلمي الأندلس بتلك اللغة .

من تلك الأدلة ما ذكره المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم ، من أنه التقى في موسم الحج ببعض الأندلسيين ، وأنه وجدهم يتكلمون لغة عربية عسيرة الفهم ، ولغة أخرى أعجمية . فتلك العربية عسيرة الفهم ، هي العامية الأندلسية ذات الخصائص المعينة التي ربما سببت عسر فهمها على المقدسي . وتلك الأعجمية التي يشير إليها هذا الجغرافي ، ليست إلا تلك اللغة التي يسميها الباحثون « رومانثي »^(١) .

ومن أدلة معرفة الأندلسيين لتلك اللغة الأجنبية أيضاً ، ما حكاه الخُشنِيّ في كتابه تاريخ قضاة قرطبة ، من أن قاضياً شكته العامة إلى الأمير عبد الرحمن الثاني . فأمر الوزراء بسماع الشهادة فيه ، وكان بالمدينة شيخ أعجمي اللسان يسمى « ينير » Yenair وكان مقدماً عند القضاة ، مقبول الشهادة مشهوراً عند العامة بالخير وحسن المذهب ، فأرسل إليه الوزراء وسألوه عن القاضي فقال بالعجمية : « ما أعرفه ، إلا أني سمعت الناس يقولون : إنه إنسان سوء (وصغر باللفظ العجمي) . فلما رفع قوله إلى الأمير —

(١) انظر المرجع السابق .

رحمه الله - عجب من لفظه ، وقال : ما أخرج مثل هذه الكلمة من هذا الرجل الصالح إلا الصدق ،^(١).

وواضح أن ما حكاه الخشني يدل على أن من أهل الأندلس من كان كهذا الشيخ يتحدث بتلك اللغة العجمية أو « الرومانى » كما تسمى . وواضح كذلك أن من كبار رجال الدولة من كان يفهم تلك اللغة أيضاً . كما فهم هؤلاء الوزراء حين سمعوا شهادة الشيخ ، بل كما فهم الأمير عبد الرحمن الأوسط ، حين رفعت إليه عبارة الرجل ، فأعجب من دقتها ، واعتبر أن مصدر هذه الدقة هو الصدق .

ومن تلك الأدلة التي تساق لتأكيد معرفة الأندلسيين « بالرومانى » ما رواه ابن حزم في كتابه جمهرة أنساب العرب ، وفي حديثه عن بعض فروعهم المسمين بنى بلى ، إذ يقول مميزاً لهم : « لا يحسنون الكلام باللاتينية ، لكن بالعربية فقط ، لسأؤهم ورجالهم »^(٢).

فتخصيص ابن حزم لبلى بهذه الميزة اللغوية - ميزة عدم إحسان الكلام باللاتينية - يفيد أن غير هؤلاء من الأندلسيين كان يحسن الكلام بها ، أو أن كثيرين غير هؤلاء كانوا يتحدثون بتلك اللغة التي سماها باللاتينية . فأصبح عدم إحسان بنى بلى لها ميزة تستحق التنويه .

ثم لماذا نتصيد الأدلة على وجود عامية عربية وعامية لاتينية إلى جانب الفصحى في الأندلس ؟ إن في تراث الأندلسيين لوناً من الشعر ، في كثير من نماذجه قد استخدمت ألفاظ عامية وأخرى رومانية ، ذلك اللون هو ما يسمى بالشعر الشعبي الذي يتفرع إلى فرعين هما الموشحات والأزجال ، وسوف نفرد لهذا الشعر الشعبي حديثاً في هذا الكتاب ،

(١) الخشني : تاريخ قضاة قرطبة ص ٩٦ .

(٢) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب (تحقيق ليلى بروفنسال) ص ١٤٥ .

وسوف تتضح في جلاء معرفة الأندلسيين للعامية والرومانثي ، من خلال تلك النماذج التي سترد لهذا الشعر الشعبي ^(١).

على أنه يجب أن نقرر أن العربية الفصحى كانت دائماً في المحل الأول ؛ فكانت لغة العلم والأدب العالي ، كما كانت لغة الرسمية وكل ما هو جاد من أمور الدولة . أما العامية العربية فكانت تلي تلك الفصحى في المنزلة ؛ وذلك لاستنادها إلى الفصحى وتفرعها عنها وقربها منها . وأما تلك العامية اللاتينية Romance ، فكانت في المحل الأخير بطبيعة الحال . وكانت تحيا أساساً بين المستعربين ، باعتبارها لغتهم الأصلية ، أما غيرهم فكانوا يعرفونها من معاشتهم لهؤلاء أو من كون بعض أصولهم أو أقربائهم من الإسبان المتحدثين بتلك اللغة . ومن هنا كان حديث غير المستعربين بتلك اللغة ، إنما يكون مثلاً بين الرجل وامرأته التي هي إسبانية الأصل . أو بين المرأة الإسبانية وبنها من رجل عربي ، أو بين مسلم ومستعرب لا يجيد العربية .

(هـ) الشخصية الأندلسية :

عرّف الأندلسيون بشخصية متميزة ، أسهم في تكوينها لإقليمهم وأصلهم وموضع بلادهم واقتصاد بيئتهم ^(٢).

أما الإقليم ، فقد عرفناه مختلف الطبيعة مقسم الجهات متباين الأصقاع . وقد سبب هذا اختلافاً في طبيعة السكان ونقسماً في نزعاتهم وتبايناً في ميولهم منذ أقدم العصور ؛

(١) انظر البحث الخاص بالموشحات في الفصل الثالث من هذا الكتاب .

(٢) نقرر أن كثيراً من مظاهر الشخصية المذكورة في هذا الحديث يئلب في عصر دون عصر ولكننا نحاول رسم صورة تقريبية ، لأن لكل عصر في الحقيقة طابعه المنعكس على الأفراد والمكون لشخصياتهم أو المغير لها بعض التغير ، هذا بالإضافة إلى تغير الشخصية من واحد إلى آخر على ما هو معروف . فهذه خطوط تقريبية وعامة إلى حد كبير .

فهم بين جلالقة^(١) في الشمال الغربي ، وقطلانيين^(٢) في الشمال الشرقي ، وبشكنس^(٣) في الشمال ، وقشتاليين^(٤) في الوسط ، وجنوبيين^(٥) فيما وراء الجبال السمراء .

ولما دخل المسلمون هذه البلاد كان لذلك الانقسام الجغرافي أثر في انقسام الأندلسيين في كثير من الأحيان ، وقد ساعد على هذا اختلاف العناصر التي ينتمي إليها هؤلاء الأندلسيون من عرب إلى بربر إلى إسبان .

وقد اتضح هذا الانقسام الذي سببته الطبيعة وغذاه الدم ، حتى ليلاحظ في أغلب العصور الأندلسية المعروفة . فلم يخل عصر تقريباً من ثورة يقوم بها هذا الإقليم أو ذاك ، أو من حركة انفصال تحاولها هذه المنطقة أو تلك ، أو من روح تمرد يبديها هؤلاء أو أولئك . وكان من نتائج ذلك أن كثر إرسال الجيوش بقيادة الجند ، إن لم يكن لإخضاع ثورة لإقليم مسلم ، فلرد هجمة جيش مسيحي ، وإن لم يكن لسد بعض الثغور ، فلتأمين بعض الحدود ، وشواهد ذلك كثيرة في كتب تاريخ الأندلس .

وقد سبب ذلك نوعاً من القلق في المجتمع الأندلسي فكان في كثير من عهوده مجتمعاً قليل الاستقرار كثير الهزات .

ومن هنا يمكن أن نتصور الشخصية الأندلسية التي عاشت في ظلال هذه الظروف ، شخصية قد عانت نوعاً من القلق ، جعلها تسعى إلى ما يشعر بالأمن أو إلى ما يسكن على الأقل بعض هذا القلق . وربما كان ذلك من أسباب ما نعرف من ميل الأندلسيين إلى ألوان من المتعة وصنوف من اللهو ، كالشراب والغناء والرقص والموسيقى ، وما أشبه ذلك مما كان يكلف به الأندلسيون .

Gallegos (١)

Catalanes (٢)

Vascos (٣)

Castillanos (٤)

Andaluces (٥)

على أن طبيعة بلاد الأندلس المقسمة المتباينة ، إن سببت هذه الظاهرة السيئة في حياة المجتمع وفي نفوس أفرادها - وأعني ظاهرة القلق - فقد عوضت تلك الطبيعة نفسها هذا النقص بظاهرة حسنة ، كان لها أثر حميد في نفوس الناس وطباعهم ، ثم في فنونهم وآدابهم . ذلك أن الأندلسيين - كما ذكرنا - عاشوا أكثر ما عاشوا في تلك السهول الخصبة ذات الجمال الطبيعي الفاتن ، وقد انعكس هذا على الناس خصوصاً في خيالهم . وجمالاً في طباعهم ، ورقة في أحاسيسهم ، وأخرج منهم أناساً يغلب عليهم طابع المحين للجمال مشاهدة وتمثلاً ، ثم محاكاة وتصوراً .

هذا ما كان من تأثير طبيعة الإقليم على الشخصية الأندلسية ، أما ما كان من تأثير لأصل الأندلسيين ودمائهم وعوروثاتهم ، فقد عرفنا الأندلسيين مولدين من عرب وإسبان ومن شرقيين وغربيين ، وعرفنا الإسبان من قبل العرب مولدين بدورهم ، فقد اختلطت فيهم دماء الإيبيريين بدماء السلتيين ، ثم بدماء الفيتقيين والإغريق والقرطاجنيين والرومان والوندلس والقوط . فلما جاء العرب أخيراً كان الأندلسيون آخر الأمر ، خلاصة كل هذا التوليد ونتيجة كل ذلك الاتصال . وكان من نتائج ذلك أن أتى العنصر الأندلسي المولد ذا خصائص خلقية وخلقية وعقلية ونفسية مميزة جاءت كلها نتيجة لهذا التولد من تلك العناصر التي اختلطت منذ أقدم العصور .

وكان أهم هذه الخصائص الخلقية : البياض المشرب بحمرة ، وقد يمتزجان فيصيران سمرة في الجنوب . ثم القوام المعتدل الطول ، والشعر الذي يغلب عليه السواد . كل ذلك مع الوسامة في الملامح والجمال في التكوين^(١) .

(١) راجع ما وصف به لسان الدين بن الخطيب أهل غرناطة في كتاب ، الإحاطة (ج ١ ص ٣٤ - ٣٥) ، وتلك الأوصاف تنطبق إلى حد ما على الأندلسيين لأن كثيراً من سكان غرناطة قد جاءوها من باقي الإقاليم الأندلسية بعد أن أصبحت هذه المملكة كل ما بقي للمسلمين في الأندلس . على أن صور الأندلسيين قد تدل عليها صورة الإسبان اليوم . وهي قرية من الأوصاف التي ذكرناها .

أما خصائص الأندلسيين من الناحية الخلقية ، فقد كانت المحافظة على الأصول الأخلاقية العامة ، لكن مع ميل إلى التحرر والانطلاق . وحب للترخص وبغض للتمت . ومن هنا كانوا يكلفون بالشراب الذى ساعدت عليه وفرة الكروم فى بلادهم ^(١) . كما كانوا يهيمون بالموسيقى والغناء والرقص ، وهى فنون ربما كانت أنسب شىء إلى ظروفهم النفسية ، المطالبة بنوع من التنفيس .

وربما كان من خصائص الأندلسيين فيما يتعلق بالأخلاق — أو إن شئت فقل فيما يتصل بالعادات — كلفهم الشديد بالنظافة ^(٢) وجهم العظيم للتأنق ، وميلهم الواضح إلى الزينة ^(٣) ، ثم انفرادهم بتقاليد فى الزى تخالف ما كان عليه أهل الأقاليم الإسلامية الأخرى ^(٤) .

فهم مثلاً كانوا — فى بعض عهودهم — يميلون إلى كشف الرأس وعدم لبس العمامة ونحوها مما كان يستعمل فى الأقاليم الإسلامية حينئذ . كما كان المعمون بحكم مناصبهم كالفقهاء والقضاة يتخذون عمامة مغايرة تماماً لما كان عليه المشاركة . كذلك كانت ملابس الأندلسيين تتخذ تفاصيل وهيئات خاصة بهم ، لا يكاد يعرفها إخوانهم فى المشرق ، وكان من أهم ظواهر مغايرة الأندلسيين للمشاركة فى تقاليد الزى ، اتخاذهم البياض لوناً للحداد ^(٥) .

(١) بلغ إقبالهم على الشراب إلى حد أن الحكم المستنصر هم بقطع الكروم وإراقة الأثرية فى أقاليم الأندلس . انظر جنوة المقتبس للميدى ص ١٤ .

(٢) انظر : نفح الطيب للمقرى ، ج ١ ص ١٠٤ .

(٣) انظر : المصدر السابق ج ١ ص ١٠٣ - ١٠٤ ثم ج ٢ ص ١١١ - ١١٢ .

(٤) انظر : نفح الطيب للمقرى ج ١ ص ١٠٣ .

(٥) وما ورد مشيراً إلى تلك العادة قول الشاعر أبى الحسن الحصرى :

إذا كان البياض لباس حزن بأندلس فذاك من الصواب
لم ترفى لبت بياض شيبى لأنى قد حزنت على شبابى

أما خصائص الأندلسيين العقلية فأهمها : الذكاء الذى يميل إلى البساطة أكثر مما يميل إلى التعقيد ، والتفكير الآخذ باليسر النافر من التفلسف . ومن هنا كانوا يبعدون كثيراً عن التفرع والتعمق والتفلسف فى أحوالهم العقيدية والثقافية والفنية أيضاً .

على أن من أهم خصائص الأندلسيين من الناحية النفسية ، ذلك الإحساس الذى يكاد يكون مركب نقص عاناه الأندلسيون بسبب وضعهم من المشاركة . فالمشاركة كانوا فى مهد الثقافة الإسلامية ، وبلادهم منبع اللغة العربية ، وأقاليمها مصدر الاتجاهات الأدبية ، فكل شيء عقدى أو عقلى أو فنى يظهر أولاً فى المشرق ويأخذ منه المشاركة ما يشاءون ، ثم يفد بعد ذلك على الأندلس . وذلك كان بسبب قرب المشاركة من المصدر وبعد الأندلسيين عن هذا المصدر . ولهذا كان الأندلسيون يحسون بنوع من التخلف عن المشاركة ، ويحاولون دائماً أن يعوضوا ذلك بتأكيد تفوقهم برغم بعدهم ، وسبقهم برغم غربتهم . ومن هنا نراهم يتعصبون للدين تعصباً شكلياً . حيث يتعلقون بمذهب مالك مثلاً تعلقاً يوشك أن يكون جموداً ، هذا على حين يترخصون فى كثير من الأمور ترخصاً ربما كان مخالفة صريحة للدين من أساسه .

كذلك نراهم يتعصبون للغة تعصباً ظاهرياً أيضاً ، حيث يفتنون بعلم النحو مثلاً ويقتلونهم درساً وتأليفاً ، ثم هم فى الوقت نفسه يتخذون لحياتهم لغة أبعد ما تكون عن النحو بل ربما كانت أبعد ما تكون عن العربية نفسها .

كما نراهم يتعصبون للأدب التقليدى تعصباً صورياً . فيتلقفون مذاهبه ويهضمون اتجاهاته ويحفظون مؤلفاته ، ويتسابقون إلى عمل مثلها أو أحسن منها . كل هذا مع اختراعهم أشكالاً جديدة من الأدب ، تبعد كل البعد عن تلك الأشكال التقليدية التى يأخذون بها أنفسهم حين ينظرون إلى الأدب الوارد إليهم من المشرق .

وهكذا نرى ذلك الإحساس بالنقص أمام المشاركة كان يدفع إلى كل ما يلاحظ

في حياتهم من تقليدية في الدين والثقافة والأدب ، على حين يجذبهم شيء آخر إلى التحرر والانطلاق والتجديد ، هذا الشيء هو بُعد بلادهم عن المشرق ، واختلاط عناصرهم بعناصر أجنبية عن العرب ، واتصالهم بمؤثرات تفتح أعينهم على كثير مما ليس في تقاليد الحياة الإسلامية العربية . ومن هنا يمكن أن نفسر هذين الجانبين من حياة الأندلسيين : الجانب التقليدي الصارم الذي جاء بدافع حب التفوق على المشاركة فيما سبق إليه المشاركة ، ثم الجانب التحرري المنطلق الذي جاء من البيئة النائية والأصل المولد والمجتمع المختلط .

بقي أن نقول : إن اقتصاد بيئة الأندلس قد أسهم كذلك في تكوين شخصية الأندلسيين ؛ فقد كانت الأندلس في أغلب عهودها بيئة غنية بالزراعة النامية التي أدخل المسلمون كثيراً من طرقها وأدواتها ونباتاتها ، والتي لا تزال آثارها باقية إلى اليوم ، في المزارع الإسبانية المحافظة على كثير من الأسماء العربية في المكان والنبات والآلة على السواء^(١) .

ولم تكن الزراعة هي مصدر الرخاء الوحيد . بل كانت هناك الصناعة أيضاً ، وكانت تعتبر من أهم دعائم الاقتصاد الأندلسي حينئذ ، فقد وفد على الأندلس بعد الفتح كثير من الصناع المهرة الذين جاءوا من مختلف الأقاليم الإسلامية ، وساعدتهم موارد الأندلس الأصلية على تأسيس صناعات وتنمية أخرى ، حتى اشتهرت مدن كثيرة بصناعات لا يزال أثرها حتى اليوم ، مثل قرطبة وشهرتها بالمنسوجات ، وألمرية وشهرتها بمنتجات الفخار ؛ ومثل قونقة التي عرفت بمصنوعات العاج ، وشاطبة التي نبغت في صناعة الورق ، وطليطلة ذات التفوق في إنتاج السيوف وعدد الحرب .

(١) من أمثلة أدوات الزراعة الباقية إلى اليوم Acequia, Aljibe, Alcaduz ومعناها : الساقية ، الحب ، القادوس .
ومن أمثلة المزروعات التي لا تزال تحمل الاسم العربي Arroz, Azucar, Accituna ومعناها : الرز ، السكر ، الزيتون .

هذا وقد كان للتجارة شأن كبير في المجتمع الأندلسي . ولا شك أن ثغور الأندلس العديدة ومنتجاتها الكثيرة مما شجع على رواج التجارة الأندلسية ؛ فقد كانت إشبيلية تصدر القطن والزيت ، كما كانت تستورد المنسوجات المصرية الشهيرة . وتستقبل كذلك قوافل الرقيق من آسيا وأوروبا ، وكانت هذه التجارة غير الإنسانية رائجة في تلك العهود . كذلك كانت جيان ومالقة تصدران التين والسكر والمرمر ، على حين تصدر بلاد أندلسية أخرى النحاس وأنواعاً مختلفة من المعادن .

وكانت أهم أسواق بضائع الأندلس في إفريقيا وآسيا وخاصة مصر والقسطنطينية وكان البيزنطيون يتلقون منتجات الأندلس . ويصدرونها بدورهم إلى آسيا الوسطى والهند . وبالإضافة إلى كل هذا كانت هناك علاقات تجارية للأندلس مع باقي بلاد العالم الإسلامي وعواصمه كمكة وبغداد ودمشق^(١) .

وليس من شك في أن الرخاء الاقتصادي يسهم في تكوين الشخصية ، لهذا كان الأندلسيون بهذا الرخاء الذي غلب على حياتهم ، قادرين على مواجهة الحياة في ابتسام وتفاؤل وتفتح إلى حد كبير . كذلك كان هذا الرخاء من عوامل إقبالهم على الثقافة وتعلقهم بالأدب واقتنائهم للكتب . ومن هنا كان المجتمع الأندلسي مجتمعاً مثقفاً متأدباً . بل كان أكثر مجتمعات أوروبا ثقافة وأدباً في تلك العصور ، بل إن شئت فقل : كان هو المجتمع الأوربي الذي يمكن أن يتصف بالثقافة والأدب حينذاك .